

واحدة كامنة فيه، لا تُفَرِّق بين الإنسان وغيره من الكائنات، فهو عالم يتسم بالواحدية المادية الصارمة (وهذه هي كلها صفات الطبيعة/المادة). والمبدأ الواحد، في منظورها، كامن (حالاً) في العالم لا يتجاوزه، ويُسمى «قانون الحركة» أو «القانون الطبيعي/المادي»، الأمر الذي يعني سيادة الواحدية المادية، وأن كل الأمور، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، مادية نسبية متساوية لا قداسة لها، وأنه يمكن معرفة العالم بأسره (الإنسان والطبيعة) من خلال الحواس الخمس. والعلمانية الشاملة بطبيعة الحال لا تؤمن بأية مطلقات أو كليات، ولعل المنظومة الداروينية الصراعية هي أقرب المنظومات اقتراباً من نموذج العلمانية الشاملة.

التحديث والحداثة وما بعد الحداثة:

تدور منظومة التحديث (والعلمنة الغربية) في إطار ما نسميه «الرؤية الطبيعية/المادية» و«الحلولية الكمونية المادية» أو «المرجعية الكمونية». فالعالم، حسب الرؤية الكامنة في منظومة التحديث، يذهب إلى أن المبدأ الواحد المنظم للكون ليس مفارقاً له أو منزهاً عنه، متجاوزاً له، وإنما هو كامن (حالاً) فيه، ولذا فالكون يصبح مرجعية ذاته، ومكتفياً بذاته، وبالتالي تصبح حدود الإنسان هي حدود العالم الطبيعي/المادي.

ويمكننا القول بأن المادية تمر بمرحلتين: صلبة ثم سائلة. وتتسم المرحلة الصلبة بأنها «لوجو ستريك»، أي أن العالم له مركز، قد يكون الإنسان وقد يكون المادة. ولكن يبدأ تفكيك الإنسان إلى عناصره الأولية فيصبح إنساناً اقتصادياً أو جسمانياً، ويتلاشى الحيز الإنساني تماماً، إذ يبتلع الحيز الطبيعي كل الكائنات، بما في ذلك الإنسان، وتصبح الطبيعة/المادة هي المركز، وتسود الواحدية الطبيعية/المادية، وهذه هي مرحلة الصلابة.

ولكن درجات الحلول تزداد تدريجياً ويتوزع الكمون في أكثر من عنصر واحد، حتى تصبح كل عناصر الواقع موضع كمون، فتصبح كل الأشياء مقدّسة،